الفكر الرشدي في المغرب الإسلامي
Averroès in the Islamic Maghreb

أ. وقدي فاطمة الزهراء [1]*

[1] جامعة ابن طفيل، القنيطرة. المغرب، ouakkeddi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/04/15 تاريخ القبول: 2021/08/12 تاريخ النشر: 2021/09/30

الملخص

يدور هذا البحث حول فلسفة ابن رشد وتطورها في المغرب الإسلامي، هادفين من خلاله إلى إبراز واقع الحركة الفكرية في بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن رشد ومراحل تطورها وانتقالها من عهد المرابطين إلى عهد الموحدين، مع الحديث عن محنة ابن رشد ودورها في إشعاع الفلسفة الرشدية، لنصل بذلك إلى أن تاريخ الفلسفة الأندلسية يكشف لنا عن حقيقة أن الفلسفة، وبعد أن كانت من العلوم المحذورة، أصبحت من العلوم العقلية التي لقيت اهتماما كبيرا، وقد بلغت أوج تطورها مع الفيلسوف ابن رشد الذي آمن بمبدأ حسن إعمال العقل.

الكلمات المفتاحية: الأندلس، الحياة الفكرية، العلوم العقلية، الفلسفة، محنة ابن رشد.

Summary

This research around about The philosophy of Ibn Rushd and its development in the Islamic Maghreb, aiming through it to highlight the reality of the intellectual movement in the Maghreb and Andalusia in the era of Ibn Rushd and the stages of its development and transition from the era of the Almoravids to the era of the Almohads, while talking about the plight of Ibn Rushd and its role in the radiation of Averroism philosophy. Thus, we conclude that the history of Andalusian philosophy reveals to us the fact that philosophy, after it was one of the forbidden sciences, became one of the rational sciences that received great attention, and it reached the height of its development with the philosopher Ibn Rushd, who believed in the principle of good reasoning.

Keywords : Andalusia, intellectual life, mental sciences, philosophy, the trial of Ibn Rushd.

* أ. وقدي فاطمة الزهراء: ouakkeddi@gmail.com

مقدمة:

إن هدفنا من العودة إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية عموما، والفلسفة الرشدية خصوصا ليس من أجل ترديد أقوال الفلاسفة، وإنما من أجل فهم مراحل تطور الوعي الرشدي، وكذا النسق النظري (Système Théorique) الذي تشكلت في كنفه الفلسفة الرشدية، ومحاولة صياغتها في نظريات فلسفية متداخلة ومتكاملة، لكي نقدم تفسيرا عقليا للمنظومة الفلسفية التي رسم معالمها الفيلسوف ابن رشد من خلال مختلف الإشكالات والتساؤلات المنطقية، ونبرز مسار تطور الفلسفة وازدهارها بالأندلس.

فمن خلال عرضنا للنشاط الفلسفي في الأندلس، ستظهر لنا الصعوبات والتعثرات التي واجهها، وكيف استطاع قنديل الأندلس أن يتجاوز هذه الصعوبات والمحن ويؤسس لفلسفة عقلانية متطورة، أساسها البرهان والمنطق العقلي، وهي الفلسفة التي ستلقى صدى واسعا في الأوساط الفكرية العربية والأوروبية.

فبعد أن كانت الفلسفة من العلوم المذمومة، حيث تم منع الاشتغال بها وإصدار أوامر بحرق كتب الفلاسفة الذين اعتبروا زنادقة ومضللين، وخصص الغزالي كتابه "تهافت الفلاسفة" للتضييق عليهم وتكفيرهم، أصبحت الفلسفة مستقلة كفكر قائم بذاته، فانتشرت المؤلفات الفلسفية وظهرت اتجاهات فلسفية متعددة نتيجة الأهمية التي اكتساها الفكر العقلي. إذن ما مراحل تطور الفكر الرشدي؟ وكيف كان واقع الفلسفة في بلاد الأندلس؟ وما هي عوامل ظهور وتطور التفكير الفلسفي فيها؟ وكيف أسهمت الفلسفة في محنة ابن رشد؟ وهل خرج ابن رشد من هذه المحنة منتصرا؟

الفرضية الأولى: هي أن الفلسفة ظهرت في بلاد الأندلس نتيجة التلاقح الثقافي وحركة الترجمة الواسعة.

الفرضية الثانية: لم تلق الفلسفة ترحيبا في عصر المرابطين، نظرا لهيمنة الفقهاء على الساحة الفكرية.

الفرضية الثالثة: تطورت الفلسفة الإسلامية عموما، والفلسفة الرشدية خصوصا في عصر الموحدين، نظرا لاهتمام المفكرين وشغفهم بالبحث الفلسفي، فتم الانتصار للفلسفة وإعلان التوافق بينها وبين الدين.

الفرضية الرابعة: أسهمت محنة ابن رشد في تطور فلسفته وإشعاعها في الأوساط العربية والأوروبية على حد سواء.

إن الهدف الرئيسي من هذا البحث هو بيان مراحل تطور الوعي الرشدي، وكذا إبراز عوامل هذا التطور والأزمات التي تعرض لها ابن رشد خلال مسيرته العلمية التي وعلى الرغم من ذلك مكنته من الانتصار للفلسفة، وإعلان التوافق التام بينها وبين الدين، ليظهر لنا التأثير الرشدي في الفلسفة الأندلسية.

لذلك سلكنا طريق المنهج التاريخي والمنهج التحليلي للوقوف عند مراحل تطور الفلسفة الرشدية وإشعاعها في بلاد الأندلس.

1. عصر ابن رشد

1.1:الحركة العلمية والفكرية في بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن رشد:

كانت الفلسفة الإسلامية سيدة العصور في زمانها، حيث وجدت الأنشطة الفكرية نفسها مهيمنة وسائدة في المغرب العربي، وذلك عائد إلى التواصل والانفتاح الثقافي على المشرق العربي، الأمر الذي أدى إلى ظهور فكر (Pensée) فلسفي وفلاسفة أغنوا الثقافة الأندلسية.

وقد ساهم في هذا الظهور الذي أدى إلى ازدهار الفلسفة وتطورها، جملة من الفلاسفة من بينهم ابن رشد الذي يعتبر أعظم الشراح العرب الذي أسهموا بقسط وفير في تعرف الأوروبيين على الفلسفة الأرسطية وأهم أسسها، فشروحاته مكنت الغرب من إنجاز نهضته الفكرية.

لقد بدأت نشأة الفلسفة عند العرب بالمشرق وانتقلت إلى المغرب العربي، وذلك من خلال التيار الثقافي الذي كان متواصلا بين المفكرين المشارقة والمغاربة بعد الفتوحات الإسلامية، مما أدى إلى إغناء التفكير الفلسفي في العالم العربي الإسلامي.

وهذا راجع بالأساس إلى كون المفكرين المسلمين "أظهروا منذ الأيام الأولى شغفا كبيرا باكتشاف وسبر أغوار الميراث الثقافي الذي وقعوا عليه في المناطق غير الإسلامية المفتوحة حديثا، حيث كانت في تلك المناطق كنوز من الكتابات الفلسفية تمثل أسس النظم القديمة في الفكر، وأهمها ما وجد في بلاد الإغريق والهند وفارس."(**تيرنر، 2004، ص:48**)

إن الرغبة التي أبداها هؤلاء في اكتشاف التراث الفلسفي والاستفادة من أسسه هو ما ساهم حقيقة في ظهور فلاسفة لاقوا الترحيب من قبل السلاطين الذين أبدوا بدورهم الرغبة في المعرفة (connaissance)، وقراءة الكتب الفلسفية مما أفسح المجال للتفكير الفلسفي ليتسرب إلى عقول محبيه.

فالأعمال الفلسفية التي أنتجها ابن رشد كانت تهدف إلى التقريب بين الفلسفة والدين ومحاولة الانتصار للفلسفة، مؤكدا في هذا الصدد أن "الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة، وهما مصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة."(**ابن رشد، ص:67**)

لقد تصدر ابن رشد إذن، قائمة الفلاسفة المسلمين الذين سعوا إلى تأسيس فلسفة إسلامية شعارها التجديد والإصلاح بدل التقليد، لذلك يعد بحق أحد أساطين الفلسفة، وقد اعتبر إلى جانب الكندي والفارابي من بين أوائل الفلاسفة الذين ساهموا بشكل كبير في تطور الفلسفة، محاولين بذلك الربط بين الفلسفة اليونانية والإسلامية.

بزغ الفيلسوف ابن رشد (1126- 1198) من قلب الأنشطة والممارسات الفلسفية السائدة في الأندلس، حيث لعب دورا أساسيا في شرح الأعمال الفلسفية الخاصة بأرسطو وتعرف أسسها، فلقب بالشارح الأكبر (Grand commentateur)، كما اهتم بقضية التوفيق بين الحكمة والشريعة محاولا رفع الخلاف بينهما، وهي القضية التي سيتم تناولها فيما بعد من قبل الفلاسفة المسيحيين في العصر الوسيط.

لذلك قوبلت أفكاره بالترحيب من قبل أمير المؤمنين أبي يعقوب المنصور الذي أبدى شغفه وتطلعه إلى سبر أغوار الفلسفة الأرسطية للتعرف على علوم المعلم الأول "فالخليفة أبو يعقوب كان على دراية تامة بالفلسفة، وشجع، كما هو معروف، ابن رشد على تلخيص الكتب الأرسطية."(**أبلاغ، 2017، ص:18**)، الأمر الذي يبرز أن اهتمام ابن رشد بشرح الفلسفة الأرسطية مرده إلى تشجيع ابن طفيل (1110- 1185) وتحفيز أبي يعقوب المنصور له.

ففي خضم هذا التشجيع، "أكب ابن رشد على دراسة الفلسفة، وأنجز المشروع الفكرة الذي اقترحه عليه الأمير الموحدي أبو يعقوب، والذي تطلع إليه من قبل- كما مر بنا- الشيخ الرئيس ابن سينا وحالت مشاغله دونه، وهو شرح كتب أرسطو، التي أعادت إلى أوروبا بعد هذه الخدمة الرشدية في مطالع عصر النهضة محررة متسقة

واضحة، فتعرف القوم على أفكار فيلسوفهم في صياغة عربية، أو كما قال قائلهم: في عباءة عربية."(**الشافعي، 1998، ص: 147**)

لذلك عرفت الحركة الفكرية في عصر ابن رشد تطورا ملحوظا، حيث أسهمت في انتشار معالم الفكر الفلسفي وإشاعته بين أوساط المثقفين في الأندلس، فأصبحت الفلسفة محط اهتمام العديد من المفكرين المسلمين.

فمع دوران عجلة العلم وتطور العلوم عند العرب والمسلمين، اتسعت دائرة الاهتمام بالفكر الشرقي واليوناني الذي عكس معالم التفكير الفلسفي الحر، وبحركة الترجمة الأمر الذي أدى إلى تأسيس حركة فلسفية (Mouvement philosophique) يعتبر ابن رشد من روادها، رافعا بذلك شعار ضرورة دراسة الفلسفة وتعلمها.

إن الفلسفة عند ابن رشد "ليست شيئا أكثر من النظر في الموجودات للوصول إلى وجود الصانع."(**ابن رشد، ص: 22**)، وبالتالي فإن الفلسفة لا تعارض أو تضاد الدين، وهذا هو الدليل القوي والقاطع الذي استخدمه ابن رشد في دفاعه عن الفلسفة ضد الإمام الغزالي الذي كفر الفلاسفة، وانتقد الفلسفة التي تؤدي في نظره إلى زيغ الإنسان وضلاله، مخالفة بذلك تعاليم الشريعة.

وبناء على ما تقدم، يظهر جليا أن البوادر الأولى للتفلسف في العالم الإسلامي ظهرت مع بداية التعرف والالتقاء مع الثقافة الفلسفية الإغريقية واليونانية من خلال حركة الترجمة، ومع الثقافة المشرقية من خلال التواصل الثقافي المستمر، وهنا بدأ المفكرون المسلمون يتساءلون حول قضايا فلسفية تنتمي إلى دائرة التفكير الفلسفي النقدي.

لقد بلغت الفلسفة الأندلسية أوج ازدهارها وتقدمها إبان القرن الحادي عشر، حيث كانت "الفلسفة من العلوم الوافدة على المسلمين، تعرفوا عليها من خلال المدارس الفكرية التي احتضنت التراث الفلسفي الشرقي(الفارسي والهندي) والغربي (اليوناني) ثم صارت هذه المدارس ومدنها جزءا من الدولة الإسلامية."(**ابن رشد، ص:17**)

فمع بداية التعرف على الفلسفة الأرسطية، أخذ الفلاسفة المسلمين ما يمكن أخذه من الفكر الأرسطي وأضافوا الجديد إليه، لأنهم آمنوا بمنطق (Logique) التجديد، وعندما تكونت لديهم صورة جديدة حول إشكاليات معرفية، استطاعوا اقتحام باب التفكير وطرح إشكالات فلسفية.

هكذا إذن "زخرت الفلسفة الإسلامية أو التراث العقلي والروحي للمسلمين، بالاتجاهات أو التيارات الفكرية المتنوعة: من كلامية وصوفية وفلسفية، وكان الاتجاه الأخير "الفلسفي" يعتمد العقل والنظر حجة أو دليلا له في قبول الأفكار أو رفضها."(**الشافعي، 1998، ص: 10**) الأمر الذي أدى إلى نشوء حركات فكرية دينية متعددة، كالفرق الباطنية والمتصوفة وغيرهم، الذين أثاروا إشكالات جديدة وحاولوا إيجاد حلول مناسبة لها كل حسب تصوره الخاص.

لقد لعبت الترجمات دورا كبيرا، حيث مكنت الفلاسفة المسلمين من تعرف الفلسفة اليونانية وإدراك أسسها، كما ساعدت على نقل التراث اليوناني مشروحا إلى الغرب الأوروبي، فنشأت مدرسة جديدة في العصور الوسطى سميت بالرشدية اللاتينية (Averroïsme Latin)، لتنتشر بذلك أفكار ابن رشد داخل المعاهد والجامعات، من ذلك جامعة باريس، فكانت الفلسفة الإسلامية بمثابة الحبل الذي نقل الفلسفة اليونانية إلى أوروبا.

جلي جدا الدور الكبير الذي لعبه التواصل الثقافي مع المشرق العربي من جهة، وحركة الترجمة من جهة ثانية في تطور الفلسفة، حيث أدى ذلك إلى إغناء الحضارة الأندلسية وظهور فلاسفة ساهموا في نقل الفكر الأرسطي بعد تعرف منطق اشتغاله إلى العصر الوسيط، كان من بينهم الفيلسوف ابن رشد.

ومن هنا، نصل إلى أن المسلمين تعرفوا على الفلسفة من خلال الدور الجليل الذي قام به اليهود، إذ نجد بأن اليهود كانوا شغوفين بسبر أغوار الفلسفة الإسلامية والتعرف على النصوص العربية، وقاموا بترجمة الأعمال الفلسفية لابن رشد من العربية إلى العبرية.

ما من شك إذن، أن ابن رشد كان من بين الفلاسفة المسلمين الذين أسهموا بشكل كبير في تطور الفلسفة، فهو "الذي فسر وشرح كتب وأفكار أرسطو، وليس هناك كتابات حركت عقول علماء وفلاسفة النصارى في العصور الوسطى بقدر ما حركتها كتابات أرسطو على ما شرحها ابن رشد."(**حتي، 1991، ص:196**) حيث نجد أن أفكار ابن رشد تركزت على دمج الفلسفة الأرسطية مع الفكر الإسلامي.

تدل الصفحات السابقة إذن، على أنه ومع ازدهار الثقافة الإسلامية نتيجة الاتصال بين علماء المشرق والمغرب، وحركة الترجمة "فإن العالم الإسلامي قد اتسع للفلسفة وشجع أصحابها."(**صليبا، 1989، ص:121**) رغم ما تعرضت له من نقد وتكفير من قبل الفقهاء وعامة الناس. من جهة أخرى، نجد بأن الفتوحات الإسلامية قد أسهمت بشكل كبير في تمهيد الطريق للمسلمين للانفتاح على الثقافات الأخرى، وبالتالي الانفتاح على أنماط جديدة من التفكير أسهمت في بروز الفكر الفلسفي

وفلاسفة جدد فتحوا عيون الناس على قضايا ومسائل فلسفية، كانت في حاجة إلى البحث والنقد (Critique) والتمحيص.

2.1: الحركة الفلسفية في عهد المرابطين

كانت المبادئ الدينية هي السائدة في دولة المرابطين، حيث نجد أغلب الناس كانوا يميلون إلى دراسة الفقه والدين، والاهتمام بالقضايا النقلية، بل أكثر من ذلك نجد أن سلطان المغرب الأقصى يوسف بن تاشفين كان شغوفا بعلوم الفقه والدين، لذلك لم يكن التفكير الفلسفي غالبا على الحياة اليومية هناك.

إن عدم الاهتمام بالجانب الفكري ساهم بشكل سلبي في تدهور الحركة الفكرية بالأندلس، حيث نجد المرابطين قد جرموا الدراسات الفلسفية واعتبروها من البدع، وكل من يدخل ساحة الفكر يتهمونه بالكفر والمروق. وخير مثال يوضح ما قلناه هنا، هو تعرض حجة الإسلام أبو حميد الغزالي للتهميش والتكفير من قبل الفقهاء، فأحرقت كتبه نظرا لما تحمله من بدع في نظرهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كون الفقهاء هم من كانت لهم اليد العليا في تسيير شؤون الدولة.

لقد كانت الأولوية للفقهاء وعلماء الأندلس الذين حظوا بمكانة مهمة في دولة المرابطين "وما زال الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم."(**المراكشي، 2006، ص:130**)

فقد أولى يوسف بن تاشفين الأولوية للفقه، واتخذ من أصول الدين طريق الهدى والإيمان، فعارض الفكر والفلاسفة وهو ما عبر عنه الذهبي بقوله:« نفق في زمانه الفقه والكتب والفروع، حتى تكاسلوا عن الحديث والآثار، وأهينت الفلسفة، ومج الكلام

ومقت، واستحكم في ذهن علي أن الكلام بدعة ما عرفه السلف، فأسرف في ذلك، وكتب يتهدد، ويأمر بإحراق الكتب، وكتب يأمر بإحراق تواليف الشيخ أبي حامد، وتوعد بالقتل من كتمها.»(**الذهبي، 1985، ص:124**).

معنى ذلك، أن الفلسفة لم تلق رواجا كبيرا بين أوساط المثقفين في بلاد الأندلس، نظرا لتحريمها من قبل الفقهاء، الذين وقفوا بالمرصاد في وجه كل مشتغل بالتفكير الفلسفي، فأحرقت الكتب الفلسفية وهوجم أصحابها.

إلا أنه وبالرغم من هذا الهجوم الشرس على الفلسفة وأصحابها، فقد "ساد نواحي الأندلس كلها خلال (العصر المرابطي) تسامح عظيم، فتكلم أصحاب كل الآراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئا، وظهرت الاتجاهات كلها: من الفقهاء المتشددين خصوم كل تأمل، إلى الفلاسفة العقليين الذين قالوا بدين واحد للبشر جميعا، فقام الطبيب الفيلسوف الكرماني بنشر رسائل إخوان الصفا في سرقسطة، وكان الذي أتى بها إلى الأندلس مسلمة المجريطي، ودخلت معها أفلاطونية حديثة بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها."(**بالنثيا، 1955، ص:333**)

لقد بدأت الحركة الفلسفية بالظهور والتطور في دولة المرابطين مع تأسيس المدرسة الألميرية التي تزعمها المتصوف الأندلسي ابن مسرة (883- 931)، بالإضافة إلى إسهامات جملة من المفكرين العرب كمحي الدين بن العربي (1165- 1240) وابن باجة (1080-1138) الذين أثروا الفكر الفلسفي.

فرغم ما تعرضت له الفلسفة من تهميش واضطهاد في عهد ملوك الطوائف، حيث أحرقت كتب ابن حزم الأندلسي (994- 1064)، الذي حرص على تبيان أن الفلسفة اليونانية لها مكانة عظيمة بالنسبة للفكر الفلسفي الإسلامي، إذ تمكننا في

نظره "من استجلاء الجوهر الحقيقي للكائنات والتخلص مما لا ينتمي إلى هذا الجوهر."(**الفيومي، 1997، ص:266**) فقد لقيت استحسانا نسبيا في عصر المرابطين رغم نقمة الفقهاء، وهكذا ظهر الفيلسوف ابن باجة (1080- 1138) الذي كان له الإسهام الكبير في تطور الفكر الفلسفي.

هكذا إذن "تألق نجم الفلسفة في سماء دولة المرابطين ويكفي هذا العصر فخرا ظهور المفكر العظيم والفيلسوف أبي بكر مُحَمَّد بن يحي بن الصائغ المشهور بابن باجة، الذي ذاع صيته في الأندلس وأوروبا في العصور الوسطى، حيث عرفه الناس باسم Avempace."(**حمدي، 1997، ص:410،411**)

وإننا لندين بشكل كبير للفكر اليهودي في هذا التألق، حيث كان له الدور الأكبر في امتزاج التراث الشرقي بالغرب نتيجة الترجمة والرحلات العلمية، وهو ما ساهم في تبلور الحركات الفلسفية، بل وبعث الحياة الفلسفية في الأندلس.

لكن رغم هذه الإسهامات، لم تنل الفلسفة حظها من البحث والدراسة، سوى كتابات فلسفية قليلة تركها كما قلنا ابن مسرة وابن باجة، وذلك نظرا لتغليب العلوم النقلية على العلوم العقلية، والاقتصار فقط على دور الفقهاء دون غيرهم. بتعبير آخر نقول، أنه ومع سيطرة الفقهاء على الحياة الفكرية في بلاد الأندلس، لم تحظ العلوم العقلية بالاهتمام في عهد المرابطين، لاسيما علوم الفلسفة والمنطق وانصب الاهتمام حول علوم الدين والفقه واللغة، لذلك وجدت الفلسفة صعوبات عدة في شق طريقها نظرا للتعصب الديني السائد آنذاك.

إن سقوط الفلسفة وتعرضها للنبذ والإقصاء في عهد المرابطين راجع بالأساس إلى ما اتسم به الفقهاء من تعصب وتشدد وجمود، إذ نجد بأن التشريع الديني هو من

كانت له الأهمية الكبرى في ذلك الزمان، حيث تم اعتماده في تسيير شؤون الدولة وتطورها.

2. الفلسفة في عصر الموحدين

1.2: ثورة الفلسفة في عصر الموحدين:

ازدهرت العلوم في عصر الموحدين ازدهارا واسعا، حيث كان الاجتهاد والاستنباط شعارهم، لذلك حظي النشاط الفكري بالاهتمام، الأمر الذي أدى إلى تطور العلوم والفكر الفلسفي في الأندلس، وكذلك الشأن بالنسبة للعلوم الدينية.

يعتبر المهدي بن تومرت (1077-1130)، من الذين رفعوا شعار التجديد والإصلاح في الإسلام، وأيضا التنديد بضرورة الرجوع إلى الأصلين القرآن والسنة، وجاء من بعده عبد المؤمن بن علي الذي كان مهتما بالتفكير الفلسفي، "فحاربوا جمود الفقهاء الذين تركوا دراسة الأصول، وتمسكوا بآراء علماء المالكية."(**تهاني، حسن، 2017، ص:4**)

لذلك حظي الفلاسفة بمكانة مهمة في عصر الموحدين، خصوصا ابن طفيل وابن رشد اللذان وجدا مكانا لهما داخل بلاط الأمير، أي زمن خلافة الأمير أبو يعقوب المنصور الذي كان مهتما بالفلسفة الأرسطية، وإصراره على الكشف عما يعترض عبارة أرسطو من غموض. يقول أرنست في هذا الصدد:« قال ابن رشد: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما، فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدري، فكان أول ما فتحني به أمير المؤمنين، بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيهم في السماء، يعني الفلاسفة، أقديمة هي أم حادثة ؟، فأدركني الحياء

والخوف، فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة، ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل ، ففهم أمير المؤمنين مني الورع والحياء ، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت ، فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب.»(**رينان، 1957، ص:36**)

من هنا، نجد أن الموحدين وبالرغم من دفاعهم عن الشريعة والعلوم الدينية، قد تميزوا بالانفتاح الفكري وحب المعرفة، لذلك وجد ابن رشد مكانا له بينهم، فكلف من قبل المنصور لشرح مؤلفات أرسطو، الأمر الذي يبرز اهتمام الموحدين بالتفكير الفلسفي. يقول ابن رشد في هذا الصدد:« استدعاني أبو بكر بن طفيل يوما فقال لي: سمعت اليوم أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه، ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهما جيدا لقرب مأخذها على الناس. فإن كان فيك فضل القوة لذلك فافعل (...) قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب أرسطو طاليس.»(**الجابري، 1998، ص:81**)

إذن، بناء على تكليف الخليفة لابن رشد، قام هذا الأخير بشرح الفلسفة الأرسطية في شروح وجيزة وأخرى طويلة فشرح عدة كتب، ككتاب ما بعد الطبيعة والسماع الطبيعي وغيره من الكتب، وغدت تلك الشروح المنبع الرئيسي الذي نهلت منه الفلسفة الأوروبية لفترات عديدة.

لقد شهدت الفلسفة في عصر الموحدين انتصارا كبيرا، حيث تم تداولها داخل البلاط الموحدي من طرف أعظم الفلاسفة المسلمين ذائعي الصيت كابن طفيل، وابن رشد، اللذان كان لهما وزن عند أبي يعقوب المنصور، وهذا التكريم ناتج عن حب وشغف الموحدين بالعلوم والمعارف.

إن هذا الانفتاح الإيجابي على الفكر الفلسفي، وتقبل حرية النقاش هو ما ساهم بالأساس في نجاح المشروع الرشدي، وهيأ له أسهل الطرق لنشر أفكاره الفلسفية بين أوساط المثقفين في الدولة الموحدية. فقد عرفت الفلسفة في عهد الموحدين "ازدهارا كبيرا وازدان البلاط الموحدي بكبار الفلاسفة وخاصة في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، وقد ارتبط تطور الفلسفة في البلاد وانزوائها بموقف خلفاء الموحدين منها."(**حسن، 1980، ص:507**)، حيث كان يجتمع الفلاسفة كابن طفيل وابن رشد بقصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لتبادل الآراء والمعارف حول المسائل الفلسفية الأرسطية، وهذا يدل على مدى شغف حكام الموحدين بعلوم الفلسفة.

إذن، وكنتيجة لما سبق ذكره في الفقرات السابقة، نصل إلى أن الفلسفة كان لها أثر عظيم في عهد الموحدين، الذين شجعوا جميع أشكال الاشتغال الفلسفي، فكان الشعار السائد لديهم هو ضرورة الاجتهاد والتجديد اعتمادا على مصدرين أساسيين، ألا وهما الكتاب والسنة.

انطلاقا من هذا الطرح استطاع ابن رشد أن يجد له مكانا في الدولة الموحدية التي أبدت اهتمامها بالتفكير الفلسفي، فلقي ابن رشد ترحيبا من سلاطينها الذين أحبوا العلم والمعرفة وأرادوا التعرف على الفلسفة الأرسطية وأسسها، فكان الفضل لابن رشد في تعرف الفكر الأرسطي انطلاقا من شروحاته.

2.2: محنة ابن رشد:

خلال تاريخ الفكر البشري، تعرض جملة من الفلاسفة إلى المحن والمآسي، منهم من مات بجرعة سم، لكنه ترك أثرا كبيرا في قلب كل محب للفلسفة وللتفكير العقلاني الحر، ومنهم من أحرقت كتبه وتم نفيه، ومنهم من عاش غريبا بين قومه، يتهم بالجنون والمروق.

إذن، لا عجب إذا ما نحن تحدثنا عن محنة (Disgrâce) ابن رشد التي كانت نتيجة اشتغاله بالفلسفة التي سببت له الويلات، فقط لأنه دافع عنها وعن الفلاسفة، وأراد لمجتمعه أن يحيا حياة ملؤها حس المسؤولية وتغليب سلطة العقل على سلطة الجهل. فنتيجة للتشدد الديني وسوء الفهم، تعرضت الفلسفة لنكبة كبيرة، حيث تسبب العداء الحاصل بين الفلسفة والدين في نكبة ابن رشد، الذي يعتبر في نظر الفقهاء قد تجاوز المحظور وخرق قداسة الدين، لذلك تم نفيه واتهامه بالمروق والزندقة.

اشترك الفقهاء في قضية واحدة وأساسية، وهي تحريم الفلسفة وتكفير الفلاسفة، وطمس كل معالم التفكير المنطقي والتكريس لخطاب فقهي عقيم يدعو إلى إعمال العنف بدل العقل، وإقصاء كل أشكال الخطاب الفلسفي.

هنا، بدأ تحريم الفلسفة والتنكيل بالفلاسفة، "وبذلك يكون الفقهاء قد أثاروا قلب المنصور ضد ابن رشد، اعتمادا على دراسته للفلسفة التي لا يمكن إغفالها عند تفسير نكبته إذ أنها أدت إلى خلق عدد من الأعداء، سعوا إلى جعل اعتقاده موضع شك عند المنصور."(**عويصة، 1993، ص:30،31**)، إذ نجد من بين أكبر الأعداء الذين تسببوا في محنة ابن رشد ومعاناته الشديدة "وجاهدوه بالمنافرة والمجاهرة، القاضي أبو عامر يحي بن أبي الحسين بن ربيع وقد نافره لغير علة ظاهرة. وعلى ذلك النفور

كان ابناه القاضي أبو القاسم وأبو الحسين والقاضي أبو عبد الله والخطيب أبو علي بن حجاج وغيرهم. فلما أخذ أعداء ابن رشد للحملة عليه عدتهم آثروا أن يحشروا معه فريقا من أصدقائه ومريديه وتلاميذه لتكون محنة الحكمة شاملة ونكبة الحكماء عامة."(**جمعة، 2015، ص:219**)

فقد أحرقت كتب ابن رشد، واتهمه الفقهاء بمعارضة حكم المنصور ونقده، فأمر هذا الأخير أعوانه بنفي ابن رشد إلى قرية يهودية تسمى أليسانة، وتم منع الاشتغال بالفلسفة أو قراءة الكتب التي لها علاقة بالفلسفة. لكن وإن أحرقت كتبه فأفكاره ظلت صامدة في وجه كل الناقمين عليه.

وهنا، يظهر أن المكانة التي احتلها ابن رشد في الأندلس، هي التي أسهمت في محنته، فقد زادت مكانته لدى الأمير المنصور، وزاد معها كيد المعارضين الناقمين عليه، فتم اتهامه بالإلحاد والكفر، وأمر الأمير بنفيه، وأحرق كتبه ومنع الناس من الاهتمام بالفلسفة.

لكن ورغم ذلك، فقد "استرد الفيلسوف ابن رشد حظوته ومكانته في البلاط الموحدي، وعاد إلى مراكش ليلتحق ببلاط الخليفة. بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة، وتوفي في التاسع من شهر صفر سنة 595 هـ (ديسمبر سنة 1198)، وهو في الخامسة والسبعين من عمره."(**الفيومي، 1997، ص:180،181**)

يمكن إذن أن يكون ابن رشد نفي لأسباب دينية، فقد عارض العلماء الفلسفة لكونها تتعارض مع تعاليم الدين، وتدعو في نظرهم إلى التفرقة بين المسلمين، لذلك تم تحريم تدريسها أو الاشتغال بها، ويمكن أن يكون نفي لأسباب سياسية لأنه ربما قد عارض سياسة المنصور، أي سياسة الحكم السائدة آنذاك.

بين هذا وذاك، يظهر جليا أنه وبالرغم "من أن الكتب التاريخية تقول: إن يعقوب المنصور تراجع، واستدعى ابن رشد إلى مراكش، حيث توفى بها، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن الحرب التي شنت على الفلسفة، بقيت مستعرة."(**أبلاغ، 2017، ص:19**) معنى ذلك، أن ابن رشد وباقي الفلاسفة لم يسلموا من النقد أبدا، فالفقهاء اعتمدوا كل الطرق من أجل الإطاحة بالفلسفة والفلاسفة ، فزرعوا في قلب المنصور كره الفلسفة التي تدعو حسب تصورهم إلى الزيغ والضلال، الأمر الذي لم يجعل هذا الأخير يتردد في نفي الفيلسوف ابن رشد وإحراق كتبه. يقول الأنصاري في هذا الصدد:« لما قرأت فلسفة ابن رشد بالمجلس وتداولت أغراضها ومعانيها وقواعدها ومبانيها خرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ... وأمر الخليفة طلبة مجلسه وفقهاء دولته بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملأ بأن ابن رشد مرق من الدين وأنه استوجب لعنة الضالين.ثم أُمر أبو الوليد ابن رشد بسكنى أليسانة وهي بلدة قريبة من قرطبة سكانها من اليهود لقول من قال، إنه ينسب في بني إسرائيل وأنه لا يعرف له نسبة في قبائل الأندلس.»(**رينان، 1957، ص:437 ،438**)

فيما تقدم دلالة واضحة على كون أن الفلسفة كانت من العلوم المحظورة، بل والمذمومة، وكل من قرأها يتهم بالمروق والزندقة، بل وخارجا عن الملة، وهذا يظهر مدى تعرض كل من الفلسفة والفيلسوف للظلم والمحن والاغتراب داخل وطنه ومن بني جلدته. لكن رغم المحن استطاع ابن رشد التأثير في الفكر الغربي.

3. تحليل النتائج:

انطلاقا مما سبق، أمكن الوصول إلى الاستنتاجات التالية:

- ✓ بدأت بوادر التفكير الفلسفي تظهر في بلاد الأندلس نتيجة التبادل الطلابي وترجمة مؤلفات ابن رشد إلى اللغات الأخرى.
- ✓ في عصر المرابطين لم يجد الفلاسفة مكانا لهم بسبب سيطرة الفقهاء على الحياة العامة.
- ✓ في عصر الموحدين تمكن ابن رشد وزمرة من الفلاسفة المسلمين من التأثير في الحياة الفكرية، حيث أسهم التطور الذي عرفه الوعي الرشدي في الانتصار للحركة الفكرية القائمة على منطق العقل والترويج للعلوم العقلية، وتم الإعلان عن التوافق التام بين الفلسفة والدين.
- ✓ أسهمت محنة ابن رشد في تطور الفلسفة الرشدية وإشعاعها في العالم العربي والغربي على حد سواء.

خاتمة:

ختاما، نخلص إلى القول بأنه وعلى الرغم مما بذله الفقهاء من جهود للإطاحة بمعالم التفكير الفلسفي، والقضاء على العلوم العقلية، والتنكيل بالفلاسفة في بلاد الأندلس، فإن كل هذه المحاولات قد باءت بالفشل. فابن رشد الذي تعرض لنكبة النفي لا زالت أفكاره حاضرة بقوة في الغرب الوسيط وداخل أرقى الجامعات، حيث استطاع انطلاقا من إيمانه العميق بمنطق التفكير الفلسفي الخالص التأثير في العالم العربي عموما والغرب الأوروبي خصوصا.

لقد أسهم ابن رشد بشكل كبير في تطور الفكر الفلسفي وازدهاره وشيوعه، فاهتم العديد من المفكرين بدراسة القضايا الفلسفية الرشدية والسعي إلى إثبات صحتها بالحجج والأدلة العقلية القائمة على منطق البرهان العقلي الذي اعتبره ابن رشد "قياس يقيني يفيد علم الشيء على ما هو عليه في الوجود بالعلة، التي هو بها موجود، إذا كانت تلك العلة من الأمور المعروفة لنا بالطبع."(**ابن رشد، 1984، ص:49**)

بتعبير آخر، لقد استطاع ابن رشد التأسيس لفكر فلسفي عقلاني قائم بذاته، مما نتج عنه الانتصار للفلسفة، والدعوة إلى إعمال العقل، وذلك من أجل الوصول إلى المعرفة، حيث جعل ابن رشد من الإنسان محورا أساسيا في عملية بناء المعرفة معتبرا إياه "الواصلة التي اتصل بها الوجود المحسوس بالوجود المعقول."(**ابن رشد، 1958، ص:159**)

قائمة المراجع:

1- قائمة المصادر:

- ابن رشد. **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال**. تحقيق: مُحَّد عمارة. ط 2. القاهرة: دار المعارف.

- ابن رشد. (1958). **تلخيص ما بعد الطبيعة**، حققه وقدم له: الدكتور عثمان أمين، القاهرة: وقفية الأمير غازي للفكر القرآني.

- ابن رشد. (1984). **شرح البرهان لأرسطو و تلخيص البرهان**، تحقيق وشرح وتقديم: عبد الرحمان بدوي. ط1. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، السلسلة التراثية 12.

2- قائمة المراجع:

- أبلاغ، مُحَمَّد. (2017). **منزلة جوامع سياسة أفلاطون في المتن الرشدي**. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.
- الجابري، مُحَمَّد عابد. (1998). **ابن رشد سيرة وفكر: دراسة ونصوص**. ط 1. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الذهبي، شمس الدين. (1985). **سير أعلام النبلاء**. ج: 20. تحقيق مجموعة من العلماء تحت إشراف: شعيب الأرنؤوط. ط 1. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الشافعي، حسين. (1998). **التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية**. القاهرة: دار الثقافة العربية.
- الفيومي، مُحَمَّد إبراهيم. (1997). **تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس**. ط 1. بيروت: دار الجيل.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي. (2006). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. شرحه واعتنى به: الدكتور صلاح الدين الهواري. ط 1. بيروت: دار المكتبة العصرية.
- بالنثيا، آنخل جنثالث. (1955). **تاريخ الفكر الأندلسي**. نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- سلامة، تهاني. سلامة، حسن. (2017). **العلوم الدينية وأعلامها بالأندلس في عصر الموحدين**. المجلة الليبية العالمية. العدد: 20.
- تيرنر، هوارد. (2004). **العلوم عند المسلمين**. ط 1. تر: فتح الله الشيخ. مراجعة: أحمد عبد الله السماحي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

- جمعة، مُحَمَّد لطفي. (2015). **تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب**. سلسلة طي الذاكرة. ط 2. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- حتي، فيليب. (1991). **العرب تاريخ موجز**. ط 6. بيروت: دار العلم للملايين.
- حسن، علي حسن. (1980). **الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس "عصر المرابطين والموحدين"**. ط 1. مصر: مكتبة الخانجي.
- حمدي عبد المنعم، مُحَمَّد حسين. (1997). **التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين**. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- رينان، أرنست. (1957). **ابن رشد والرشدية**. تر: عادل زعيتر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
- صليبا. جميل. (1989). **تاريخ الفلسفة العربية**. بيروت: دار الكتاب العالمي، الدار الإفريقية العربية.
- عويصة، كامل مُحَمَّد. (1993). **ابن رشد الأندلسي: فيلسوف العرب والمسلمين**. ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.